Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

المقدس وإضفاء المعنى

The holy and adding meaning

آسيا واعـر ASSIA OUAR

جامعة باجي مختار–عنابة-

MCA Faculty of Arts, Humanities and Social Sciences Department of Philosophy Badji Mukhtar Al-Annaba University

Assia.ouar@univ-annaba-dz.com

تاريخ الاستلام: 2021-08-15 تاريخ القبول : 2022-03-27

الملخص

تقترن مرادفة المقدس بالجانب الماورائي الميثافيزيقي، والذي يحمل في طياته مدلول التعظيم الذي لايمكن بأي حال من الأحوال المساس بأي شيء من صوره، مرادفة تُستخدم وبشكل كبير في الخطاب الديني المتعلق بكل ما يمس الذات الإلهية أو ما نجم عنها من إصدارات، إنّ ورقتنا البحثية هذه تهدف إلى ضبط تصور المدلول والوقوف على حقيقة حده خاصة من زاوية الفكر الغربي وتحديدا مع كل من "**روجيه كايوا Roger Caillois**" (1913-1978)م و"مارسيا إليادة **Mircea Eliade** " (1907-1986)م.

موقف ذهب إلى أنّ طبيعة المقدس لاتكمن في الشيئ ذاته وإنما هو معطى خارجي نتيجة للتصور العقلي وما يضفيه هذا الأخير من معاني على الأشياء الأمر الذي نعارضه جملة وتفصيلا باعتبار أنّ المقدس قبل أن يكون معطى أولى للتصور الذهني فلن يكون - هذا المعطى - إلا بما يكون به المقدس مقدسا.، مما أسفر عن نتائج تمثلت في ضرورة إعادة النظر في ضبط ماهية المقدس بنظرة موضوعية أكاديمية تقتضي النظر من زوايا متعددة لا واحدة..

الكلمات المفتاحية: المقدس، المعنى، العقل، معطى، قائم بذاته.

Abstract:

The word holy is associated with the metaphysical aspect, which carries the meaning of glorification and cannot compromise any of its forms under any circumstances. It is used heavily in the religious discourse concerning everything that is divine. Our paper aims to adjust the perception of meaning and identify the one truth, especially from the perspective of Western thought, specifically with "**Roger Caillois**" (1913-1978) and "**Mircea Eliade**" (1907-1986).

They believed that the nature of the holy is not inherent in the same thing, but is an external given due to the mental perception. What the latter add is what we oppose in full and in detail, considering that the holy is an initial mental perception, but this perception is in fact derived from the holy as a sanctified in its own right. The results were that controlling the holy should be reviewed academically and objectively, requiring consideration from multiple angles

Keywords: holy, meaning, mind, given, stand-alone.

مقدمة:

إنّ الحديث عن المقدس هوحديث عن الجانب الروحاني الذي تتميز به الذوات الإنسانية عن غيرها من الكائنات ذلك أنها تحتكم على شعور داخلي سواء أكان أصيلا في ذاته أم وراثي أمدها الآخر به وتوارثته جيل عن جيل بوجود حقائق خفية وأسرار كونية مرتبطة بقوى مفارقة أبدعت هذا الكون كما أوجدت نظامه وحددته بكل دقة وإحكام، معتقد نجم عن جراءه العيديد من السلوكيات التي ترافق الواقع المعاش لأي فئة كانت من الفئات البشرية هذا ما نصطلح عليه "الدين" الذي يدير بشكل أوبآخر المسار الإنساني كافة في جميع مجالاته وتنوع أصعدته، ذلك أنه يعتبر عند الكثيرين المصدر الأول والأخير لسير المسار الإنساني وفق نمط أقل ما يقال عنه أنه سوي خال من كل شائبة يمكن لها أن تعكر صفوعيشه.

الدين وما يرافقه من سلوكيات قضية تكاد ترتبط بالوجود الإنساني ارتباطا لزوميا، والمستقرئ لتاريخ الفكر الإنساني يجد أنه لايمكن وبأي حال من الأحوال قد كان هناك تجمعا بشريا دون معتقد ما، سواء أكان هذا الأخير سماوي، طبيعي أوحتى وضعي الأمر الذي أدى إلى تعدد المعتقد الواحد، وقد يعترض عارض هل يكون ما يُعتقد فيه متعددا متنوعا حسب معتقد الأفراد، لنرد قائلين أنه مهما تعدد المعتقد من قبل هؤلاء إلا نهم اتفقوا على حيثيات نرى انها من الاهمية بمكان في مجمل ما يعتقده هؤلاء من قوى مفارقة واجبة الوجود خارقة خالقة لهذا الكون أبدعته سيرته ولاتزال إليه يرجع الأمر من قبل ومن بعد إنه:: "الله ".

يمكن القول أنّ الإعتقاد بوجود قوى مفارقة للذوات الإنسانية أي القول بوجود إلاه قد كان نتيجة لتدبر العقل في ملوكوت السوات والأرض تأمل في البعد الأنطولوجي من جانبيه الروحي والمادي، فضلا عن الجانب الإسكاثولوجي وإشكال مابعد عالم الشهادة وغلى أين تصير الأنفس إذا ما فارقت أجسادها؛ خوف يعتريه رجاء وطمأنينة بالقول بعالم أفضل وأجمل مما نتواجد اليوم فيه، وبغض التظر عن تلك الآراء التي أنكرت أوتعمدت تجاوز ما شد العقل الإنساني لحقب من الزمن واعتبرت الوجود انما كان صدفة، أومن تحول لبعض الحيوانات وتحت وطأة قانون الطبيعة (داروين) وغيرها من الآراء التي نرى أنها لانلمس ولحد الساعة حججا علمية موضوعية دقيقة على موقفها هذا، وإنما هي آراء ومواقف نجمت وحسب تقديرنا مما عاناه هؤلاء من ظروف لامواتية أدت بهم إلى نوع من التطرف الفكري الذي ريحتكم على شيء من المبادئ العقلية ولا على البراهين المنطقية قيد أنملة.

إنّ قضية تبرير تصديق لحيثيات هذه القضية نرجيه إلى دراسات لاحقة، أما وعن ورقتنا البحثية هذه فإنها تبدأ في التحقيق عن ماورد من نتاج المعتقد وتحديدا مع مرادفة المقدس التي تعني أنّ هناك أمورا لايمكن المساس بها وأنّ الولوج إليها يعد من الاستحالة المطلقة، ونريد أن نشير إلى أنّ المقدس لايضم المعنى الإلهي وحده بقدر كل ما يرتبط بهذا المعنى من كتب ومظاهر ووقائع شهدها –ولايزال- التاريخ الإنساني، مقدسات تعلن صراحة تجاوز الحق الإنساني من أن يقف عليها إلا بما تسمح هي به، معنى نراه قائما بذاته لايمكن أن نصل إليه إلا عند نحقق شرطي العقل والوعي معا، لتأتي آراء مناقضة لهذا وترى أنّ المعنى ماهوإلا معطى تضيفه الذوات البشرية على أمور شتى ثم تقنع نفسها بقدسيته، الأمر الذي أدى بنا إلى البحث في حقيقة هذا الطرح وفي تحليل جزئياته، وهذا من خلال تحليل هذه الآراء مع الوقوف على ما اتت به من حجج وبراهين في ذلك، لنبين حقيقة الأمر وضبط المفهوم –المقدس- ضبطا من أوجه وزوايا متعددة تحليلا لاشكال طبيعة المقدس للوقوف على ضبط تصوره بشكل متعدد الرؤى لامن حيثية كيف يدير للوحدات الإجتماعية بمختلف اسقاطاته، دراسة اعتمدنا فيها المنهج التحليلي والمتضمن بدوره المنهج التحليلي والمنهج المقارن وهذا من خلال تحليل الرؤى العامة لحد المقدس مع تحليل لبعض من الآراء الجزئية التي عالجته وفق سياق ومنطلق تطلبته دراساتها، لندلي برأينا إجمالا في القضية، ضمن التحليل العناصر التالية:

المحور الأول: المقدس قراءة أولية

تعني الدلالة في مجملها ما "يجبأن يكون موضوع إحترام لايمكن انتهاكه"[1]، ليشكل جملة من المحظورات التي لايمكن المساس بها والعمل على المحافزة عليها والإبقاء عليها كماهي، كما تشير في موضع آخر إلى "الكامل أخلاقيا، سواء في الكلام على الأشخاص أو في الكلام على القوانين أوالأعمال، أما مصطلح القداسة، الثداسة في الله هي عصمة جوهرية متنافية مع كل خطيئة، متمانعة مع كل نقص في الفهم والمشيئة"[2]، قدسية قداسة قديس؛ أما في قولنا عن شخص

ما أنه قديس فهي "إسم أكثر منها صفة، ومصطلح لاهوتي يدل على الشخص الذي جرى تطويبه، وتستعمل عادة خارج كل فكرة دينية، للكلام على إنسان تجعله فضيلته بمنأى عن كل غواية، أوتجعله قادرا على النيل منها دون خلل. وهي بالمعنى المسيجيتدل على الصبر، التواضع والتخلي عن الملذات المادية"[3].

ونكون هنا بصدد مصطلحات ثلاثة هي: قدسية الشيء وهي الفردة المتعلقة بالأشياء والقداسة المتعلقة بالذات الإلهية وقديس متعلقة بالذوات الإسانية ولكل مجال وما يعتريه من صفات متعالية خاصة غير مشتركة تتوجب سلوكياتا تليق بمقامها؛ لنأتي على مصطلح "المقدس" الجزئية التي تقوم عليها دراستنا هذه فينطوي على " ما ينتسب إلى نظام أشياء منفصل، مخصوص، لايقبل الإنتهاك، ما يتعين عليه أن يكون موضوع احترام ديني من قبل جماعة من المؤمنين"[4]. ولعل قضية ضبط تصور المقدس لايمكن تحديدها في بضعة أسطر ذلك أنها كانت محل إهتمام المفكرين والباحثين في مدى إمكانية وأحقية البحث في هذا المجال؟

أولا- سؤال المقدس:

إنّ البحث في المقدس هوبحث في كنه سر هذا الوجود الإنساني، الذي زاوج بين عالمين متناقضين جعلت منها الثنوية مبدأ فلسفتها، ثنائية يسير وفقها هذا العالم: نور ظلام، خير شر، قوة ضعف، لذى ألم، (...)إلخ من المتناقضات والمضادات التي تؤسس هذا العالم والذي يندرج في حد ذاته تحت عالمين اثنين هما المقدس والمدنس، ومن بين الإشكالات التي تقف أمام سير البحث في هذا المجال هوأولا وقبل كل شئ ضبط لتصور المقدس، ماعلاقته بالتصور العقلي ومنه إلى أثره في تسييس التجربة الإنسانية وواقعها المعاش، ثم هل المقدس هوكذلك بما يرتبط بمباحث الدين أم له مجالاتا أخرى وجب التفكير فيها وتدبر تفاصيلها.

1- ماهية المقدس.

إنّ من الإشكالات التي يثيرها درس المقدس مدى إمكانية وأحقية البحث في هذا المجال، وهل يمكن ان نخضعه لمنطق العقل وإلى أليأته وأدواته التي يعتمدها في البحث عن الحقائق العلنية والمعرفية، وقبل أن نخوض غمار جزئياته نطرح إشكال مدى إمكانية ظبط تصوره والوقوف على حقيقة ماهيته؛ عادة ما تأتي التعريفات في هذا المجال بمقابلة الأعلى بالدوني أي بمقابلة المقدس بالمدنيوي، أو ما يصطلح عليه بالمدنس.

كان "دفيد يميل دوركايم" David Émile rkheim. (1858-1917)م قد نوه بضرورة ربط مفهوم القدسي في تأويل الظواهر الدينية كما ذهب إلى أنّ ذلك التعارض البين بين القدسي والدنيوي هوتعارض لعالمين متنافرين جذريا، ذلك أنّ كل حياة دينية تدور حول قطبين متناقضين يقوم بينهما التعارض عينه القائم بين الطاهر والدنس، بين المقدس وانتهاك المحرمات، بين الإلهي والشيطاني[5]، والملاحظ هنا أنا نعمل على ضبط المفهوم – مفهوم المقدس من خلال نفيضه أوضده وهذا منافي تماما للتعريف المنطقي الذي نصبوإليه، وإن كان هذا يدل على شيء فإنما يدل على حساسية الحد ومحاولة التقرب من فحواه ذلك أنّ هناك من يرى أنّ البحث في المقدس هوفي ذاته إبطال للمعنى في حد ذاته، فكيف لنا أن نبحث عن شيء ويكون بحثنا نفيا لحقيقته عوض الوقوف عليها !، هذا ما يذهب إليه ة. ماكاريوس وهذا في أنّ البحث في المقدس هوفي ذاته إبطال لمفعول قدسيته. بل حتى أنه شكل من أشكال إنتهاك المحرم، بالفعل، فالبحث في المقدس هوتحويل له إلى موضوع شبيه بجميع موضوعات الفكرز موضوع يقال باللغة، ويفكر بها وفيها، الأمر الذي يخضعه لمنطقها وعقلانيتها الداخلية، وهنا يدخل البحث على المقدس ماهوغريب عنه ومتعارض معه[6]،

2- تجليات المقدس

عادة ما ينجم عن القداسة تجليات عدة نذكر من بينها: الكتب السماوية، وما تحمله من تعاليم ومبادئ ، وأحكام تلزم الأفراد باتباعها، الأماكن التي تكون موضع ممارسة الطقوس والشعائر الدينية كالمساجد في الدين الإسلامي، والكنائس وغيرها من المعابد في الديانات الأخرى، الأزمنة المخصصة للأعياد والمناسبات التي تحتفل بها الأفراد كل عام وفي أوقات محددة، كل هذا وغيره يضفي عليه العقل لمسات قدسية لها من الإجلال والتعظيم ما يخصها وما يميزها عن بقية الأمور

ثانيا- المقدس والدين .

يرتبط المقدس بالدرجة الأولى بالجانب الديني، حتى يمكن القول أنّ دلاللة المقدس ذات مصدر ديني، وأنها تتعلق بكل ماهو ديني، "فالمقدس والدين مفهومان مترابطان تاريخياً؛ فدائماً نجد الدين ممزوجاً ببعض المقدّسات، كما نجد

المقدّس تضفى عليه مقولاتٌ دينية، ولعلّك لا تجد ديناً لا مقدّس فيه، وقد ظلّ هذا التصاحب بين الدين والمقدّس قوياً حاضراً، حتى كاد لا يتصوّر الدين بلا مقدّس، وسنحاول هنا أخذ موقع نطلّ منه على هذا الموضوع باختصار شديد، إذا أردنا أن نعرّف مقولة (المقدّس) التي نعنيها هنا، نجدها تحمل أحد مدلولين، وربما حملت معاني أخرى أيضاً، وهذان المدلولان هما

1- الأول: العصيان على الفهم، فالأمر المقدّس أو القدسي هو الأمر الذي لا نفهمه ولا نعيه وعياً عقلانياً في بُنيته الداخلية، وإن كان أصل وجوده قد ثبت لدينا بدليل عقلي وطبق تصوّرات عقلانية، فمثلاً (الله) أمرٌ مقدّس، بمعنى أننا لا نفهمه ولا ندرك ذاته ولا كُنهه، نعم نحن استطعنا أن نتعقّل مبدأ وجوده عبر معطيات عقلانية، سيقت على نهج البراهين الفلسفية أو الكلامية هذا اللون من الأشياء تسمّى مقدّسات في الوعي الديني، ومن الطبيعي أنه ليس كل شيء لا نفهمه هو مقدّس، بل من أبرز ميزات المقدّس أو الأوصاف التي تلتصق كثيراً به هو وصف التعالي عن الفهم، وإلاّ فقد نعرف أنّ الشمس موجودة لكننا لا ندرك تكوينها وعناصرها لكنّ هذا لا يصيّرها .لوحده .مقدّسةً؛ لأنّ معرفتنا هنا لا تجعل وعيها أمراً صعباً، أقرب إلى المستحيل.

2- و أما الثاني: لتعالي عن النقد، ومعنى ذلك أنّ المقدّس في الدائرة الدينية لا يمكن نقده أو إبطال معطياته، سواء استطعنا وعيها لكنها لم تقنعنا، أو أننا لم نعيها وندركها إدراكاً عقلانياً من الأول، فإذا قال النبي مثلاً .: عليكم إقامة الصلاة خمس مرات في اليوم، فهذا أمرٌ قد لا نعي مبرراته، ولا نفهم طبيعته، ولهذا لا مجال للحديث عن قناعتنا بصواب هذا الوجوب والإلزام أو عدمها؛ لأن المفروض أن المعطيات التي برّرت هذا الوجوب لم تتضح لنا بعدُ، كي نحكم عليها بأنها صائبة أو غير صائبة، وعلى الخط عينه، أن يخبرنا النبي بأنه رأى العرش، ولا نعي نحن ما هو العرش وعياً عقلانياً، ففي هذه الحالات علينا التصديق والتسليم، هذا ما يجعل النبي مقدّساً في الدين، أي أنّه يتعالى في قوله وسلوكه عن النقد؛ فلا يمكننا نقده حتى لو لم نقتنع قناعةً عقلانية بما يقول، بل قناعتنا تنبع من كونه مقدّساً، ولولا ذلك لما اقتنعنا. هذه أبرز الصفات التي تلاصق .عادةً .المقدّس في دائرة الدين[7].

المحور الثاني: المقدس كمعطى خارجي

إنّ المتأمل في الفكر الغربي التي عنيت بالخطاب الدلالي للمقدس يجد أنها تجعل منها شيئا خارج عن الذات منفصل عنها، كما تجعله نابعا من التصور العقلي، فحسب بعض الدراسات العقل الذوات الإنسانية هي من يخلق المعنى ويضفي الدلالة – دلالة المقدس على الأشياء- كما أنها وحدها من يخلع هذه الصفة، ليكون المقدس في اعتبار هؤلاء رهين التصور العقلي وتفصيل هذا في مايلي

أولا- روجيه كايوا Roger Caillois (1913-1978)م

كان الغرض من دراسة روجيه كايوا المقدس أن يستفصي فيها مدى الترابط الكامن بين الوجود الإنساني والمقدسات في صور ووقائع التجربة الإنسانية، وهذا من خلال استعراض المظاهر التي يتراءى المقدس من خلالها إلى للوجدان البدائي، والوجوه التي يتخذها بالنسبة إلى من يتحسسه"[8].بغية تحليل الأثر الذي يرسيه في حياة الأفراد ومدى تسيسه لسلوكيات الأفراد

إذ أردنا أن نضبط مفهوم المقدس فإنا نجد أنه يتعارض تماما ومفهوم الدنيوي إذ يحمل اللفظان دلالات ومعاني متباينة العوالم، فإذا كان الأول ينطوي على مقولات ماورائية ميثافيزيقية فإنّ الثاني يعبر على راهنية الواقع، وعلى قدر ما توحي البداهة الأولى على أنهما على طرفي النقيض إلا أنهما

مكملان لحقيقة البعد الأنطولوجي الإنساني الذي لا يمكن له وبأي حال من الأحوال أن يكون إلا بهما.معا.

ذهب روجيه كايوا إلى أنّ لفظ المقدس يقابل عادة لفظ الدنيوي وإذا ما أردنا أن نقف على حقيقته لابد أن نحلل العلاقة القائمة بينه وبين الدنيوي الذي يصب في قالب التصور الديني، لأنه يعد "الفكرة الأم التي يتمحور حولها الدين، فالأساطير والمعتقدات تحلل مضمونه على طريقتها والطقوس تستخدم خصائصه، والكهنة يجسدونه والمعابد والأماكن المقدسة والصروح الدينية توطده وتجد ذره في الأرض، ومنه تنشأ الأخلاقية الدينية، فالدين هوتدبير المقدس[9]"، ومن ميزات المقدس لديه أنه يشكل خاصة ثابتة أوعابرة لبعض الأشياء: أدوات العبادة أوالملكات: الملك والكاهن، أوالأمكنة: المعبد والكنيسة والمزار، أوالأزمنة: يوم الأحد، عيد الفصح، عيد الميلاد(...)إلخ، ليس هناك ما يصلح بذاته لأن يكون مقرا للمقدس، ليس المقدس صفة تملكها الأشياء في حد ذاتها، بل هوعطية سرية متى فاضت على الأشياء أوالكائنات أمدتها وأسبغتها بتلك الصفة، فالشيء حسب روجيه كايوا لا يكون مقدسا إلا بحسب ما يحدده العقل الإنساني وما يتوافق والمعايير التي يحددها له أيضا الأمر الذي يفسر سبب تباين صور المقدس في تاريخ الفكر الإنساني باختلاف الأزمنة واختلاف الشعوب بل حتى واختلاف الأديان الطبيعية منها والسماوية، وهذا بيان على أنّ القدسي لا يستمد قداسته من ذاته وإنما هومقدس بغيره[10]"، ثم أنّ المتأمل في المقدس يجد أنه المصدر الأول لكل فاعلية ترجوها الذوات فالمؤمن يلتمس العون والتوفيق من المقدس ويكن له احتراما مزاجه رعب وثقة، كما يمثل المصدر الأسمى للسراء والضراء بغض النظر عن كنيته التي تتغير من معتقد إلى آخر، ذلك أنّ المقدس يتمتع بقوة جذب سحرية يستحث الراغب على الجرأة والإقدام، إنه في صورته الأولية يشكل طاقة خطرة خفية على الفهم عصية على الترويض، شديدة الفاعلية.

ثانيا- ميرتشا إلياده Mircea Eliade (1907- 1986)م

ذهب ميرتشا إلياده إلى أنّ البحث في المقدس لابد وأن يكون من قبل العلوم المختصة وهذا لتجاوز أزمة الفهم وما يعتري الدرس الديني من خلل ونقص في ضبط المصطلح والمفهوم، فالمقدس ظهر كحقيقة من نظام آخر غير الحقائق الطبيعية، ومهما يكن من المصطلحات التي يمكن أن نضعها لاستعاب هذا المفهوم فإنا لا نجد حسب ميرتشا أفضل من مصطلح التجلي الذي يكون أكثر دقة في إيصال أنّ المقدس يظهر بعضا من نفسه، فكان التجلي في صوره الأولى: حجر أوشجر حتى التجلي الأعلى الذي هوبالنسبة للمسيحي، تجسد الإله في يسوع المسيح، المقدس حقيقة لا يمكن لها أن تنتمي إلى العالم الدنيوي، فثنائية المقدس والمدنس تشكل الأبعاد الممكنة للوجود البشري والذي لا يكتمل أحدهما بالآخر، وكان من بين الذين بحثوا في هذا المجال – المقدس- ورأى بأنه يمكن أن يتجلى ويظهر نفسه في أشياء مختلفة وفي مواضع عدة كالحجر والشجر، لكن التمجيد الذي حظيا به لا يرجع في حد ذاته إلى صورهما وإنما لتجلي المقدس فيهما.كما يصنف هذا التجلي مستعينا بما ورد في الكتاب المقدس في مواضع هي::

1-المكان المقدس وتقديس العالم.

لا ينظر المتدين إلى المكان بنظرة أحادية وإنما تختلف نظرته من المكان المقدس إلى المكان الدنيوي، فالحيز المقدس يمتاز بنظرة المتدين إليه على أنه الحقيقي وحده، والموجود حقيقة والباقي امتداد بلا شكل محدد، ويحيط به. مظهر المقدس يبني العالم أنطولوجيا، أما الحيز الدنيوي- المدنس- فهوحيز متجانس وحيادي، "فكشف مكان مقدس يسمح بالحصول على تقطة وعلى العكس فإنّ التجربة الدنيوية تدعم التجانس وبالتالي نسبية المكان.

2--الزمن المقدس والأساطير.

وتمثل زمن الأعياد الدورية، والذي يختلف عن الزمن الدنيوي والوقت العادي المجرد من أي دلالة دينية، الزمن المقدس بطبيعته قابل للإنعكاس، في المعنى المعتبر فيه زمنا أسطوريا بدئيا وغذا حاضرا، فكل عيد ديني، وكل وقت طقوسي من خاصيته إعادة تحيين حادث مقدس حاصل في ماض أسطوري[11] في البدء، والمساهمة دينيا في عيد تقتضي الخروج من الفترة الزمنية "العادية" لإعادة إدخال الزمن الأسطوري المعاد التحيين بالعيد ذاته. فالزمن المقدس يمكن استعادته إلى ما لا نهاية كما يمكن تكراره إلى ما لانهاية أيضا، لكل عيد دوري يوجد الزمن المقدس ذاته الذي كان ظهر في عيد السنة السابقة أوفي العيد الذي مر عليه قرنا من الزمن إنه الزمن المقدس المخلوق والمكرسة قداسته بإشارة الآلهة التي أعادت تحيينه. فالعيد يمثل الظهور الأول للزمن المقدس ويبقى كذلك لأنه الزمن المعاصر لخلق كان بالضرورة مقدسا بالوجود والنشاط الإلهي، وهكذا يجد المتدين نفسه بين

نوعين من الزمن زمن مقدس وآخر دنيوي على أن يتسم الأول بطابع من السرمدية

3- تقديس الطبيعة والديانة الكونية

الطبيعة ودائما من وجهة نظر المتدين تكون وحسب مرتشيا مثقلة بالقيم الدينية، لأنّ الكون إبداع إلهي، خرج من يدي الآلهة، وأنّ العالم يبقى مغرقا بالقداسة فأنموذج المقدس يكمن في بنية العالم وفي الظواهر الكونية، السماء تكشف اللانهاية وتصاعد الإله، والكون في نظام وانسجام تام، الكون تتلاقى فيه الكينونة الفردية وتجلي المقدس ليتابع مرتشيا في مؤلفه المقدس والمدنس كيف تنكشف القداسة عبر تكوينات العالم ذاته. بالإضافة إلى تحليله لقضايا أخرى يراها تمس المقدس لا يتسع المقام إلى تحليلها[12]

المحور الثالث: المقدس دلالات قائمة بذاتها

تختلف نظرة العقل الإسلامي إلى المقدس عن تلك التي ينظر بها العقل الغربي، فإذا كان هذا الأخير يجعلها حقلا معرفيا يقولب حياة الذوات الإنسانية بحسب ما يمده العقل من تصورات توجد اتباع سلوكيات معينة اتجاه ما يصادفه من عادات يومية فكانت النظرة إلى المقدس نظرة عقلية جعلت من هذا الأخير مولدا لدلالات استشكلها وتوارثها عبر الزمن، نجد العقل الإسلامي انكب على درس المقدس باعتباره مقدسا وهذا بمسلمات أولية وضع من خلالها حدود الدراسة وسياجا يتحرك البحث وفقه ولايمكن له أن يتجاوزه وإلا حاد عن طبيعة الدرس لهذا الحقل المعرفي، الأمر الذي لم يستسغه محمد أركون حامل لواء الفكر الحداثي في الوطن العربي وتفصيل هذا :

أولا - محمد أركون Mohammed Arkoun (1928-1910)م وآليات التقديس في الفكر الإسلامي

أرجع محمد أركون حالات الضعف والجمود الفكري الذي أصاب الأمة الإسلامية هوالطابع الذي تنظر إليه إل تراثها الأول – القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة- باعتبارهما يدخلان في حيز اللامفكر فيه أي حيز قدسية الشيء الأمر الذي دفعه إلى إرساء مشروع إعادة بناء تاريخ الفكر الإسلامي بآليات تعتمد مناهج العلم الحديث، المنهج الذي يخول الوصول إلى حقائق علمية ومعرفية لم يكن للعقل أن يصل إليها من قبل وهذا ما شرع في إسقاطه على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة

1- في إعادة درس النص القرآني

كانت لمحمد أركون نظرة في جمع القرآن وترتيبه منها أنّ الصحابة قد استخدموا القرآن بصيغ جدالية هدفها الصراع على السلطة السياسية، مستندا في ذلك إلى التراث المتواتر وأغلب الظن أنّه اعتمد على التراث الشيعي في سرد الرواية، كما أنّه زعم بأنّ الخلفاء اللاحقين بعد عثمان رضي الله عنه قد رفضوا أراءً أخرى حاولت إحداث تعديلات جديدة وممكنة في القرآن الذي جمعه عثمان رضي الله عنه، والزعم بأنّ هذه المطالب كانت مطالب ذات مصداقية وكان ينبغي عدم رفضها، كما رأى أن في هذا الإجماع ليس له ما يبرره ولكنه سيف مرفوع من المسلمين لإرهاب أي رأي جديد حول القرآن فلا اجتهاد ولا رأي حتّى ولوكان هذا الرأي من القادة السياسيين ذوي السلطان، ويرى أنّ هذه هي اللّغة الوحيدة الكائنة في المجتمع الإسلامي كبت كلّ رأي متحرر حتّى غدا المثقفون يمارسون الرقابة على أنفسهم ويمتنعون عن الخوض في هذه المسائل الحساسة"[13].

يذهب محمد أركون إلى أبعد من هذا، وهذا في نقده للنص القرآني الكريم إذ يرى "أنّ المهمة العاجلة التّي تتطلبها أية مراجعة نقدية للنص القرآني، ينبغي :

-إعادة كتابة قصة تشكّل هذا النص بشكل جديد كليًّا، أي نقد القصة الرسمية للتشكيل التّي رسخّها التراث المنقول نقدًا جذريًا وهذا يتطلب منًّا

-الرجوع إلى كلّ الوثائق التاريخية التّي أتيح لها أن تصلنا سواء كانت ذات أصل شيعي خارجي أم سني، هكذا نتجنب كل حذف ثيولوجي لطرف ضد أخرى، والمهم عندئذ هوالتأكد من صحّة الوثائق المستخدمة .

-نواجه ليس فقط مسألة إعادة قراءة هذه الوثائق، وإنّما أيضًا محاولة البحث عن وثائق أخرى ممكنة الوجود كوثائق البحر الميت، التّي اكتشفت مؤخرا، يفيدنا في ذلك سبر المكتبات الخاصة عند دروز سوريا، أواسماعلية الهند، أوزيدية اليمن أوعلوية المغرب، يوجد هناك في تلك المكتبات القصية، وثائق نائمة، مقفل عليها بالرتاج، الشيء الوحيد الذي يعزّينا في عدم إمكانية الوصول إليها الآن هومعرفتنا بأنها محروسة جيدًا.

هكذا نجد أنفسنا أمام عمل ضخم من البحث وتحقيق النصوص الذي يتبعه فيما بعد – وكما حدث للأناجيل والتوراة – إعادة قراءة سميائية ألسنية للنص القرآني. ...إنّ

قراءة كهذه للقرآن تتبدى اليوم عملا شديد الأهمية، ولكن للأسف فإنّه ينقصنا العدد الكافي من العُمّال الباحثين"[14]

هذا ومن جهة أخرى يتساءل أركون عن اقتناع ملايين البشر من أنّ الشريعة ذات أصل إلهي؟ وكيف شرع العقل لهذه القوانين والمتمثلة في: القرآن، الحديث، الإجماع: إجماع من؟ هل هوإجماع الأمة كلها، أم إجماع الفقهاء فحسب، وفقهاء أي زمن وأي مدينة؟ لانجد أي إجابة لهذا، وكذا القياس. هذا كله يعتبره أركون الحيلة الكبرى التي أتاحت شيوع ذلك الوهم الكبير بأنّ الشريعة ذات أصل إلهي، يتيح القياس حل المشاكل الجديدة المطروحة في حياة المجتمعات الإسلامية، وبهذا الشكل يتم تقديس كل القانون المخترع، كل هذا العمل شيء حدث متأخرا، إنّ القانون المدعوقانونا إسلاميا كان قد تشكل زمنيا قبل ظهور هذه المبادئ النظرية التي أدت إلى ضبط وتقديس القانون[15]

بهذا نلمح الشّك الأركوني في القرآن الكريم وما دام الأمر كذلك فلا بد من عملية نقد وبحث في سند القرآن ليعلم هل القرآن حقا هوذاك الذي بين أيدينا؟ أم أنّ هناك نصوصا مفقودة أوموضوعة من قبل البشر وستظهر لنا يوما وثائق من هنا ومن هناك، وهنا قد نلمس العذر لمحمد أركون وهذا تقديرا لحماسته الشديدة واجتهاده الفكري في النهوض بالأمة الإسلامية، ففي معنى أحد الأحاديث الشريفة أنّه من اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وخاب فله اجر واحد. لكن سؤال يطرح نفسه أين محمد أركون من كلامه تعالى " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" آية تمحوكل شك في كيفية جمع القرآن وفي كيفية ترتيبه إنّا لمتيقنون أن القرآن الكريم لم يحذوحذوالإنجيل والتوراة المحرفتين اللّذان طالتهما أيادي اليهود والنصارى فالقرآن الكريم تعهده المولى عزّ وجلّ بالحفظ والرعاية وسيبقى كذلك إلى أبد الآبدين

2- في إعادة النظر للأحاديث النبوية الشريفة

يرى محمد أركون "أنّه لمن الغريب أن نلاحظ أن الفكر الإسلامي قد بقي حتّى اليوم يعيش على أفكار ابن حجر العسقلاني ت (1449م) وأسلافه بخصوص موضوع الصحابة. هذا على الرغم من أن هؤلاء يحتلون موقعا مفتاحيا وأساسيا فيما يتعلق بنقل النصوص المؤسسة للإسلام ولكل تراثه، ولكننا نلاحظ أن تراجم "كتاب الرجال لابن حجر تصور لنا شخصيات مثالية ترتفع بالمخيال الإسلامي الشائع وتجيشه وتذكر (= تقنّع، تحجب) في ذات الوقت الحقيقة التاريخية المتعلقة بكل شخصية من الشخصيات المترجم لها. لقد آن الأوان لكي نفتح هذه الأضبارة الشائكة على مصراعيها (كليّا). إننا لا نستطيع أن نكتفي بمفهوم "العدالة" الذي بلوره المحدّثون (أصحاب الحديث) وإنّما ينبغي إعادة تفحص كل "الإسنادات" ليس فقط عن طريق تطبيق المنهجية الوضعية للمؤرخ الحديث الذي لا يهتم إلا بالمعطيات والأحداث التّي يمكن تحديدها بدقة ويرمي كل ما عداها في ساحة المزيج المعقد الغامض للخرافات والأساطير الشعبية. وإنّما نريد على العكس أن نبين كيف أنّ العناصر الأسطورية الزائدة المضافة على سير الصحابة من أجل تشكيل شخصيات نموذجية مقدسّة كانت قد دعمت "حقيقة" المعلومات التأسيسية المكونة لكل التراث الإسلامي بشكل أقوى مما فعلته المعطيات والأحداث التاريخية الواقعية التّي حصلت بالفعل"[16].

وبهذا يرى محمد أركون أنّ التاريخ الإسلامي، تاريخ مزور ملفق من وقائع حقيقية وخيالات لعبت دورًا في نسج أحداثه، أمّا الشخصيات فإنّ المخيال أوالأسطورة لعبت دورا كبيرا في نسج حياتهم التّي بدت مثالية بالنسبة لعالم البشر، ونتاج هذا الخيال هوالذي حجب حقيقة الصحابة وقنّع صورهم الحقيقية، وأظهرهم في صورة العدول. الأمر الذي يراه زيادة على الحقيقة، هذا ما ينبغي كشفه وذلك بنبذ كلّ هذه الزيادات التّي أنتجها المخيال ليظهر الصحابة ثم أهل الحديث بعدهم بصورتهم الحقيقية لتّي تلتق فيها فكرة العدالة التّي بلورها المحدثون بل ادعوها للصحابة.

ثانيا- المقدس كمعطى جواني

خلافا للنظرة التي ترى أنّ المقدس هو بالدرجة الأولى معطى أولي للتصور الذهني الموقف الذي يترأسه العقل الغربي والذي خاض أبعاد القضية من منطلق نفسي اجتماعي أنثروبولوجي نجد أنّ هناك آراء تتجاوز هذا حتى وإن كان فيه جانبا من الصحة والصدق خاصة فيما يتعلق بالمعتقد الوضعي الطبيعي، فكيف ذلك؟

1- طبيعة المقدس في الفكر الإسلامي

إنّ المستقرئ لطبيعة درس المقدس في الفكر الإسلامي يتبين له وبكل وضوح النهج المعتمد والأدوات التي يعتمدها الباحث في هذا المجال، ولعل أبرزها تلك المنطلقات والمبادئ الأولية التي تشكل مسلمات الدرس لديه، إذ يضع العقل الإطار الذي يتحرك وفقه الفكر دون أن يتعداه قيد

أنملة، ولعلّ ما حللناه من فقرات مقتضبة حول الدعوة الأركونية في إعادة تدبر أولى مقدسات الفكر الإسلامي لدليل ساطع على أنّ المقدس بكافة سياقاته يبقى مقدسا حتى وإن خضعه العقل لمحك النظر، فدرس المقدس في الفكر الإسلامي درس يقدم في تحليلاته وهو حامل في طياته شذرات فدسية لما سيقوم بتحليله، فمحمد أركون وما أتى به من مسلعي شكلت مسيرة حياته الفكرية والعملية لم نجد لها ولحد الساعة – حسب تقديرنا- أي ردة فعل من الدراسات والبحوث الأكاديمية التي كانت غالباتها تنتقد ما أتى به خاصة في أنّ مساعيه كانت تقليد ما قام به الفكر الغربي في إعادة قراءة الكتاب المقدس بمناهج وآليات معاصرة، هنا يمكن القول أنّه من العسير أن ننجح في المساس الفكري بالمقدس في الفكر الإسلامي، ليس من قبيل العجز والجمود وإنما من باب الوعي بأنّ التدبر والتعقل في هذا المجال يحتكم أولا وأخيرا على ما أتت به النصوص الشرعية في البعد الزمكاني المخصص لها، وأنّ السعي في هذا المجال لايجب أن يكون مفتوحا على مصراعيه لدرجة الإنزلاق في متاهات فكرية قد تؤدي نتائجها إلى التناقض والأخطاء مما يترتب عنه حجب الحقائق وطمس نورها فيكون بذلك إرساء لجملة من المغالطات والمتاهات التي يكون ضررها أعمق وأشد، وقد يعترض عارض في كيفية الوصول إلى هذا المقدس وتفسير التفاعل القائم والمنبثق عنه، وتحليلنا لهذا يكون في مايلي

2- في الانجذاب الروحاني نحو القداسة والقدسية والقديس

ذهبت بعض الدراسات إلى أنّ المقدس لايكون قائما بذاته وإنما يرجع إلى ما يختلج الأنفس الإنسانية وما ينجم من تصورها الذهني والعقلي، فلايوجد ما هو مقدس إلا بما يأذن ويقول العقل بذلك، فالعقل هو الحاكم الأول والأخير في إضفاء صفة القداسة على الشيء وما يراه مقدسا فهو مقدس وما ينتزع منه هذه الصفة يصبح لامقدسا وكأنّ المقدس حسب هذه الدراسات وقف على العقل وعلى ما توارثه من فكر وعادات وتقاليد عبر الزمن، وإنا لنلمس النزعة السفسطائية في هذا الموقف، والقائلة بأنّه لاوجود لحقائق باعتبار أنّ الإنسان هو مقياس كل شيئ وهنا نجد أنفسنا أمام إشكال يطرح نفسه وبقوة والمتمثل في ارجاع المقدس بجميع صوره لتصورات ذهنية لاغير مما يترتب عنه نفي تام لهذه الحقيقة التي ينعدم وجودها بوجود العقل الإنساني

نرى أنّ القداسة والقدسي والقديس والمقدس دلالات قائمة بذاتها، صحيح أنها تشترط العقل والوعي لكن اشتراط إمكان تعقل كونها لاشرط إمكان وجودها، نقصد من هذا أنّ المقدس لايشترز بعده الأنطولوجي بالبعد الأنطولوجي للعقل أي أنّ العقل لايخلق ولايوجد المقدس وإنما يتعقله ويعيه هذا هو الدور الذي يؤديه العقل في درسه وتأمله للحقيقة،كما لانكتفي بالعقل وإنما نصل إلى كنه هذه الحقائق عن طريق المنهج الحدسي الذي نجمع فيه بين العقل والقلب، وحججنا في أنّ المقدس قائم بذاته كثير متعددة نجملها في مايلي

1- الاعتقاد بوجود ذات إلهية

يمكن القول أنّ الشعور الباطني الذي تحملها الذوات اتجاه وجود خالق اوجب هذا الوجود وأبدعه، وإليه الأمر كله والقوة الخارقة والكمال المطلق الذي يرجع إليه الفرد ويستمد قواه الروحية منه لدليل قاطع على أنّ هناك قداسة قائمة بذاتها، بغض النظر عن الإسقاطات التي يقوم بها العقل في وضع صورها المتباينة من قوى مفارقة أو حيوانات أو جماد لأنّ ما يهمنا هنا هو ذلك الإقرار بوجود إله قادر تطمئن إليه البشرية وترجع إليه في أمورها، قضايا ميثافيزيقية ماورائية لايتسنى للعقل أن يدرك حقائقها إلا بدرجة كبيرة من التأمل والتعقل دون أن ننسى فاعلية الحدوس، ومنه فإنّ انجذاب الأنفس نحو هذه القوى المفارقة والإقرار بالألوهية لدليل بين على أنّ القداسة معنى قائم بذاته ينجذب إليه الآخر بحسب درجة التعقل والوعي التي يمتلكها انجذاب لمعنى قائم بذاته لا إلى معنى معطى

2-الاعتقاد بالكتب السماوية

والأمر نفسه بالنسبة للكتب المقدسة والنص القرآني الكريم الذي يحمل قدسيته في ذاته حجتنا في هذا أنّ هناك العديد من الكتب المصفوفة لحقب من الزمن وما القدسية التي تتميز بها الكتب السماوية – خاصة القرآن الكريم – عن غيره من الكتب لا لأنّ العقل قد زودها وأضاف لها هذه الصفة وإنما قدسيتها إنما كانت من المطلق والكمال الذي يحتكم عليه الأمر الذي لايمكن له أن يكون إلا من ذات إلهية متعالية

3-الإعتقاد بالأنبياء والرسل

وكذا في تقديس الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله تعالى ليبلغوا رسالته في أنه رب واحد وإله واحد، فالإيمان بهؤلاء الرسل وبمحمد خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم لو لم تكن مقومات القدسية قائمة فيه لما لقي تعظيما ونظرات تقديس من الآخر ، فالخلق العظيم الذي كان يتحلى به وسلوكياته المثالية جعلت منه قديسا وما نظرة الآخر إليه إلا نابعة من قدسيته هو لا قدسية مضافة إليه بحسب ما تقتضيه العقول

4- اعتناق الدين الإسلامي – الدين الحق-

إنّ المستقرئ لحركة الفكر الإنساني من زاوية المعتقد يجد أن إعتناق الديانة الإسلامية في تزايد مستمر وهذا إن كان يدل على شيء فإنما يدل على إنجداب العقل الإنساني انجذابا روحانيا اتجاه الحق، وبحسب ما تمليه عليه حدوسه الباطنية، وقد يعترض عارض على أنّ دراستنا هذه تحيد عن الموضوعية، لنرد أنّ الموضوعية تقتضي القول بهذا فخججنا وافعية مستمدة من الحاضر ، وشواهد عدة أدلت بدلوها وبشهادتها بانجذاب روحي وبصفاء ونقاء لم تشهده من قبل كل ما سمعت صوت الحق – الآذان- وكل ما قرأت أيات بينات من الذكر الحكيم، إنجذاب نبرهن من خلاله على أنّ العقل الإنساني ينجذب إلى المقدس بما فيه من دلالات قائمة بذاتها لا بما يضفيه هو عليها.

خاتمة:

يرتبط مصطلح المقدس بكل ماهو ماورائي ميثافيزيقي، يعبر عن وجود معاني ترسندنتالية تسوس البعد الأنطولوجي للتجربة الإنسانية من كافة جوانبه، وعادة ما نربط الدلالة بما يناقضها ليتحدد الإيطار الذي يحوى حركة الفكر فيه، ولقد اجتهذت الدراسات المعاصرة في تبيان وفي ضبط تصور المقدس لا من جانبه المعتاد وهو الجانب الديني، وإنما من الجانب الإجتماعي، النفسي، والأنثروبولوجي لتكون رؤى مغايرة تماما عن ما نعرفه من المقدس باعتبار أنّ هذا الأخير ما هو إلا معطى أولي من معطيات التصور العقلي والنتاج الذهني، الأمر الذي أدى – وحسب رأينا- إلى طمس الحقيقة العلمية والمعرفية لتصور المقدس الذي لم يعد سوى تابعا للعقل الإنساني يضفيه على أي شيء كيف شاء وقت ما يشاء كما يخلعه عن أي شيء كيف ما شاء وفي الوقت الذي يشاء، ورغم أنّ هذه الدراسة قد لاقت إستحسانا من قبل الكثيرين ورغم أنّ فيها نسبة من الصحة إلا أننا نرى أنها قد اجتكمت على أحكام مطلقة وهذا في جعل المقدس ممتثلا للتصورات العقلية ولما تعايشه من جوانب 'جتماعية نفسية، فالمقدس وحسب رأينا إنما يكون مقدسا لا من خلال ما يضفيه عليه العقل ويقر به وإنما لإقرار العقل بما وجد من قذاسة وقدسية في ما يصادفه من قضايا وأمور لأنّ المقدس هو مقدس قائم بذاته يشترط بالدرجة الأولى العقل والوعي لتتم عملية الإدراك، فالعقل والوعي شرطا لمعرفة المقدس لا لإضفاء صفة القداسة على الذوات والأشياء.

. قائمة المراجع:

- أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، م3، ط2، منشورات عويدات، بيروت، 2001،
- Makarius(l.levi) Le sacré et la violation des interdits, Payot , Paris, 1974
- روجيه كايوا، الإنسان والمقدس، تر: سميرة ريشا، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2010،
- مرسيا إليادة،، المقدس والمدنس،_تر: عبد الهادي عباس، ط1، دار دمشق، دمشق، 1988م
- محمد أركون، تاريخية الفكر الإسلامي، تر: هاشم صالح، ط2، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1996م
- حيدر حب الله، المقدس والدين: العلاقة الإيجابية والسلبية، مجلة نصوص معاصرة، العدد الثامن، خريف 2006 مركز البحوث المعاصرة، بيروت

• الهوامش

1- أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، م3، ط2، منشورات عويدات، بيروت، 2001، ص1235

2- المرجع نفسه ص1236

3-المرجع نفسه، ص1236

4-المرجع نفسه، ص 1229

5-المرجع نفسه، ص1230

6-Makarius(l.levi) Le sacré et la violation des interdits, Payot , Paris, 1974,P8

7- حيدر حب الله، المقدس والدين: العلاقة الإيجابية والسلبية، مجلة نصوص معاصرة، العدد الثامن، خريف 2006 مركز البحوث المعاصرة، بيروت، ص ص 5-6.

8- روجيه كايوا، الإنسان والمقدس، تر: سميرة ريشا، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2010، ص9

9- المرجع نفسه، ص3(

10- المرجع نفسه، ص37

11- الأسطورة: لا تتخذ الأسطورة هنا المعنى المعتاد من الخرافات والأوهام وأنها كل ما يقابل الواقع وإنما هي الحقيقة المطلقة التي تروي

تاريخا مقدسا، أي أنها تكشف عن وحي يتجاوز حدود العقل البشري حصل في فجر الزمان – زمن البدايات المقدسة- لذا اعتبرت أسطورة التي تروي قصة الخلق، وتحك عن الفعل الإلهي وكل ما يتعلق به مما أتى في الوحي

12- مرسيا إليادة،، المقدس والمدنس،_تر: عبد الهادي عباس، ط1، دار دمشق، دمشق، 1988م

13- محمد أركون، تاريخية الفكر الإسلامي، تر: هاشم صالح، ط2، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1996م، ص288

14- المرجع نفسه، ص ص 290-291

15- المرجع نفسه، ص197

16- المرجع نفسه، ص17.